

تيه في الألوان

حكايات مرقعة بخطوط لونية

محمد أشويكة



المجلس الأعلى للثقافة

تيه فى الألوان

حكايات مرقعة بخطوط لونية

محمد أشويكة



٢٠١٠

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أشويكة ، محمد

تيه في الألوان : قصص قصيرة / محمد أشويكة

القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط١ ، ٢٠١٠

١٢٤ ص ؛ ٢٠ سم .

١ - القصص العربية القصيرة

(أ) العنوان ٨١٣,٠١

رقم الإيداع ٥٤٥٨/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى I.S.BN. 978 - 977 - 479 - 962 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكـــار التى تتضمنهـــا إصدارات المجـلس الأعـــلى للثقــافة هـى اجتهادات أصحابها، ولا تُعبر بالضرورة عن رأى المجلس.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤ .

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.

www.scc.gov.eg

تنبيه : هذه المحكيات مستوحاة من لوحات فنية تشكيلية لفنانين مغاربة وعرب وعالميين، وهى محكاة بمدينة مراكش بين سنتى ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥.



التكلــــس(*)

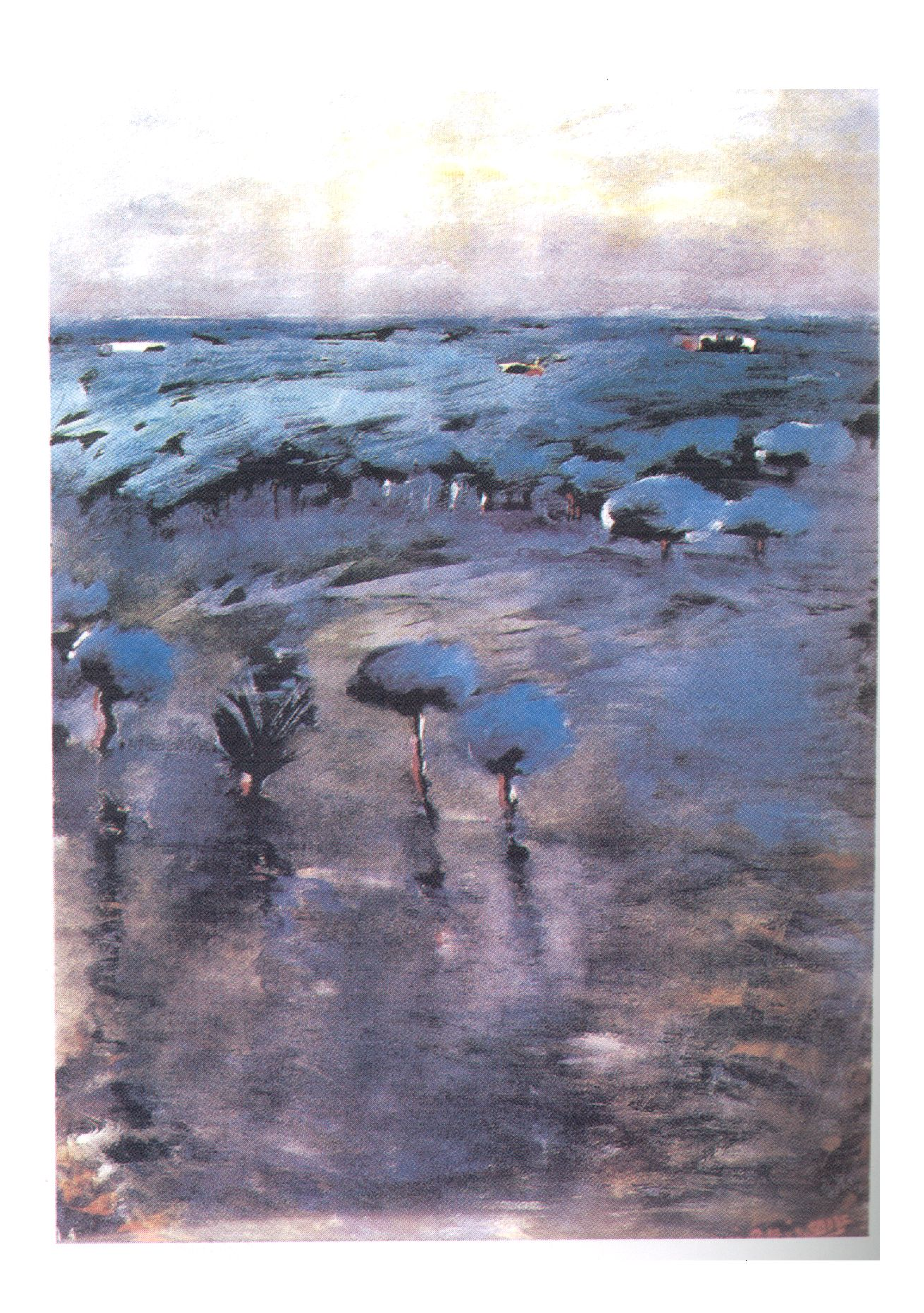
أتعبني الزمن وتوالت سنون القحط على البلد......... أحس أن جسمي الضامر لم يعد يقوى على حمل جثتي السقيمة... في بعض الأحيان لا يعرف الإنسان لنفسه مستقرا، كل شيء أمامه ولا يرى شيئا......... العجب! لماذا لا يجني هذا الشيخ من بستان أيامه سوى هذه الانكفاءة التي تشبه التواء نبات في صحراء قاحلة؟!

كان ولده الوحيد لا يفارق الكمان......... لقد خلت جسم أبيه كمانا...... لكن شتان بدون عازف ولا أوتار......... كل شيء قد تحطم! الرأس على الركبة... الركبة فوق الساق... الساق ملتصق بالأرض دون أخمص......... تكلس كل شيء وانطوى الظهر على البطن... كنا نسمع بأن كثرة الضرب تحول البطن أنعم من الظهر... وثيرا وثيرا... لكن، عندما يصبح البطن كالظهر، ويلتوي الإنسان كالأفعى في فصل الشتاء، أو كالحلزون في فصل الصيف... يتقلص الجسم رغم تغير الفصول... بدون ضرب...

(*) مستوحاة من لوحة بدون عنوان للفنان المغربي الحسين آيت أمغار.

الزمن وحده يضربنا... فهل يصبح للموسيقى معنى حينما يصبح جسم الإنسان كالكمان في ضموره والتواءاته؟! تصبح له موسيقاه الخاصة...

الموسيقى لا تعنى دائما الأوزان... فى اختلال الأوزان موسيقى أخرى كاملة... قد نعزفها وقد تعزفنا... العزف على وتر الالتواء عزوف دهرانى قاهر... ما أروع أن نعزف دون عزوف ولو التوى الوتر!...



الغـــابة(*)

دخل الغابة ببطء وكأنه يحتاط من شيء يتوقعه... يجول ببصره بشكل بانورامى دون أن يتمكن رمشه الأعلى من معانقة رمشه الأسفل... عيناه جاحظتان كأسد يتوجس الإيقاع بغزال غافل يتلهى بامتصاص الماء ومراقبة صورته المنعكسة على زرقة البحيرة الصافية... انتبه إلى أن صوت الغابة قد تغير... شيء مالم تعتد طبلة أذنه سماع طنينه... ألوان الغابة غير معتادة... روائح الغابة ليست كذلك... أصوات الطيور خافتة مختلفة... أصوات الحيوانات منعدمة...

اكتشف جزءًا من الكاغد منقوشًا بلغة برانية تدل على أن المنتوج من صنع دويلة جديدة فى منطقة قديمة...

سارع إلى الصعود فوق الصخرة التى تتوسط الغابة... أخذ موقعه فى قمتها من الجهة التى تتيح له رؤية عامة حيثما ولى وجهه...

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان «اقتراب» للفنان الليبى على العنانى.

ياه!... جذوع الأشجار تحمل أشياء غريبة وأشكالاً عجائبية... أصيب بالذهول... مسح عينيه ليتمكن من الوقوف على الحقيقة دون غبش: شجرة فى هيئة قنفذ أو ضربان، شجرة على شكل عين كبيرة جاحظة، غابة بدون ملامح يتوسطها لسان دموى... جذوع حمراء تشكل واحة لا نرى سعف نخيلها بالكاد... ماهكذا كانت تراقب الأشجار نبض الحياة فى القرية! ماهكذا كانت رئة أهل القرية!

ما قيمة الرئة إذا لم تعد تؤدى وظيفتها البيولوجية بدون برمجة؟! هل كل الرئات تتنفس؟!



القنبــلة(*)

لا أقصد القنابل التى تعرفونها جميعا: النووية والهيدروجينية والعنقودية والكيماوية... وما تمطركم به شاشات شركات الاتصال العابرة للقارات...

.. يحكى أن مركبًا صغيراً للصيد التقليدى ينطلق ليلا من دون ربان بعد أن مات صاحبه المشهود له بالدراية والردبة فى مجال الصيد البحرى... عايش أعتى الأعاصير... لحقت به أنكى الضرائب... فقد أبناءه فى البحر أو سلبهم منه كما يحلو لرفاق دربه أن يحكوا حين يتكلمون عن سيرته...

فى الثالثة ليلا يشتعل الضوء وسط المركب وينطلق دون مجاديف ولا محرك ميكانيكى... يبتعد الزورق الميل بعد الميل... تحدث وسطه فرقعة ضوئية كبرى تتشكل على هيئة الانفجار المعروف للقنبلة النووية...

(*) مستوحاة من لوحة بدون عنوان للفنان الإيطالى Andrea Ipasso .

الفرق أن الانفجار الذى أتحدث عنه لا يشبه الانفجار النووى فى شىء، انفجار بألوان الطيف، يختفى بعده الزورق إلى أن يظهر فى الصباح الباكر في مكانه المعتاد دون احتراق أو إصابة أو تلف...

أمر مدير ميناء الصيد عماله ومعاونيه باستدعاء ورثة القارب لإخراجه من الميناء بعد أن كاد الصحافيون تنغيص حياته العملية بسبب تحقيقاتهم الفضولية والإشعاعات التى يرويها الصيادون كل يوم...

كان له ما أراد... عاد الزورق إلى الميناء... انطلق كالعادة... حدث الانفجار اللونى...

أمر المدير بإحراق المركب... اختفى الزورق من مكانه وشبت النار فى المركبين المجاورين...

استمر خروجه الليلى من نفس المكان... واستمر الانفجار اللونى... بات الانفجار من عجائب المدينة...



الصليب(*)

كان الابن مغرما بالأقنعة... بحث فى أصولها وأسباب استعمالها وعلاقة راهنها بماضيها... لا يستطيع زائر غرفته الخاصة رؤية الحائط بسبب تكدس الأقنعة فى كل أركانه : أقنعة سوداء وحمراء وصفراء وزرقاء... مصنوعة من مواد مختلفة... تحيل على حضارات تلخص سيرة الإنسان منذ الخلق الأول إلى الإنسان المعلب...

فى الركن الأوسط من الغرفة يتسلطن قناع ملون يرتدى زيًا حديثا بربطة عنق أنيقة... يسميه الابن «الإنسان الحديث»... يغير فى كل شهر قناع البذلة ويزين الأطراف باكسسوارات غريبة من الخردوات والعلب المستعملة وبقايا جثث الحيوانات...

اكتشف أبوه أثناء سفر الابن فى إحدى عطل نهايات الأسبوع رأس حمار ميت كان يعده منذ مدة لاعتلاء البذلة بالتناوب مع الأقنعة الأخرى... راودته الفكرة حين اكتشف مقبرة جماعية لعظام الحمير قبل ذيوع خبر جزارة هذا النوع من الفقريات فى المدينة...

(*) مستوحاة من لوحة بدون عنوان للفنان المغربى عبد العزيز العباسى.

تشكلت فى ذهنه فكرة وجودية فانطاستيكية : هل كل من أكل لحم الحمير ينتسب عبر «شراكة الطعام» و«تلاقح الدماء» و«امتزاج الأنساب»... إلى فصيلة الحمير؟!

عاد الابن وكله رغبة فى تحقيق حلمه وتجريب فكرته مع بداية الشهر... ولما لا؟ العالم كله يسير وفق فكرة تعن لأول كائن استيقظ باكرا!... دخل الغرفة... فتش عن رأس الحمار فلم يعثر عليه...

لم يجرؤ على فتح النقاش فى الموضوع مع أبيه وأمه... عاد إلى المقبرة فوجد رجال المباحث هناك... أخذوه على ذمة التحقيق...



الأسدوسات(*)

١ - أسدوس الشبكة :

ما عاد شيء فى العالم يهمك... هاتف محمول... حاسوب محمول... مفكرة إلكترونية... فارز رقمي... كاميرا ديجيتال... سيارة ذات إشارات إلكترونية بمنظار مجهز بتكنولوجيا الأشعة مافوق الحمراء...

تدير عملياتك من أى مكان يتوفر على ال Réseau

٢ - أسدوس الطرد :

تضع الشكل الخماسى الأسود ذا الرأس الحاد فوق مكتبك الضخم... تديره ذات اليمين وذات الشمال... تمارس لعبة فك الرموز مع سكرتيرتك التى تفهم اتجاهات الباب؟!

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان «مخزون الذكريات ٢» للفنان المصرى آدم حنين.

٣ - أسدوس النظر :

وحيد ذاك الشخص الذى يراقب منظومة الإنذار المجهزة بكاميرات الفيديو... يمتلك أرقامها السرية ويغير (عيونها) ذات الأبعاد السباعية حسب الألوان ومصادر الضوء... ظننت أنك تراقب كل شئ ولا تخضع للمراقبة... لكن! ماسر الجهاز الخماسى المزدوج الذى لايفصل جزأه العلوى عن جزئه السفلى سوى صفيحة مستطيلة رمادية فوقها مخروط مغلق فوق مكتبك...

هل كل مراقب يظل خارج المراقبة؟!

٤ - أسدوس التخمين :

القاعدة صلبة زرقاء والسقف أحمر ذو مناقير حادة... تصور أن البيت الذى يأويك، يُشَكِّلُ حجر الكلس ذا الأبعاد التسعة أساسه!... لو أزلنا المثلث الأصفر لانكشف كل شىء...

ما حقيقة اللون الكلسى الذى تتأسس عليه قاعدتك؟!



التيه(*)

هذا العالم الذى شيدته لبنة لبنة، وعدلته سنتمترا سنتمترا، وأقمت فيه كل شىء؛ ظننت أنه سيتيح لك العيش بأقل إكراه ممكن... لنقل بأقل تكلفة ممكنة أحسن... التكلفة مقياس كل الأشياء دون احتساب رسوم التفكير فى الشىء فى حد ذاته...

ها أنت تترك كل التسهيلات وترحل بنفسك متأملا العراء والخلاء... أتهرب من الدخلاء الذين دخلوا كل الأبواب دون إذن مسبق منك؟!

أظن أن استسلامك هذا هروب من الحقيقة التى طالما تتبعت سرابها فى خطاطات مشاريعك... قد لا ننجح دائما عندما نخطط! للحظ ضربته القاضية فى آخر لحظات التخطيط...

تأمل حظك العاثر أيها المهزوم! من هزمك؟ أظنك لا تدرى؟ لو شككت فى شىء أو اهتديت على الخيط المؤدى إلى صندوق هزائمك لقطعته إربا إربا، بل **Bit par bit** كما تمزق ملفاتك الرقمية إلكترونيا...

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان Le trappeur للفنان الأمريكى Rock Well Kent.

ما أجمل أن يتيه الإنسان!... أن يقدم نفسه قربانا للطبيعة... اشتقت إلى حالة الطبيعة، ربما قرأت عنها فقط في بعض الكتب وظننت الأمر مجرد أسطورة!... ليس كذلك، الأمر غير ما تتصور تماما: ظلال متعانقة، رمال متحولة، نباتات متوحشة، وحيش مشتاق للدم، شمس لاهبة، غيوم غاضبة... لا يغرك جمال المنظر، سينقلب كل شيء في برهة ولن تقبض سوى على راحة يدك... فيها راحة ورَاحٌ ورَواحُ...

المسألة لا تتوقف على هروبك هذا، هناك الانكسار... تأمل أمامك ولاحظ كيف انكسر الظل على الأرض المنكسرة... الانكسار يولد الانكسار في حالة الطبيعة...

أشك في عودتك، مصيرك لن تتحكم فيه، ستقبض على التيه إذا ما تمسكت بحل أزماتك المنقبضة أصلا...



"بَـــرَّا"...(*)

هز يديه مستغربا أمام ذهول من حولة... لم يعتد أن يتكلم معه الآخرون بطريقة كهذه: لا تتحركوا...

ظن أن الأوامر بقيت فى دربه المقهور جاثمة فى ألبوم صوره الرمادية القاتمة... جاء على بلاد الحرية والمساواة والعدل... صدق مهربيه فى البداية وآمن بأسطورة «برا» كل شىء جميل «برا»... تعمل كثيرا وتربح كثيرا «برا»... السيارة الفارهة «برا»... الشهباء الهيفاء «برا»... التنقل السهل «برا»... كل شئ جميل «برا»...

يدور فى خلده عكس ذلك... وجميع الصور الأخرى: الغرق... الموت... فقأ الحوت للأعين وطمس ملامح الوجه... التكدس فى القوارب... الاختفاء فى الغابات... المطاردات بواسطة الكلاب «الشمامة»... الاعتقال الجماعى فى ظروف كريهة... انقطاع الأخبار عن الأهل... تفقير الأسرة... إغناء المهربين...

(*) مستوحاة من لوحة بدون عنوان للفنان المغربى م. يوسف الكهفعى.

يتحدث لأصحابه قائلا: «برا» أو الموت... ما قيمة الموت إذا كانت بيولوجية فقط؟! نحن ميتون مع وقف التنفيذ... من لا يستطيع قول هذا، يتجرع حقيقة الأمر بمرارة...

كان مؤثراً من خلال خطابه، وقد شهد له بذلك جل رفاقه خلال خطاباته أيام الجامعة...

هل يستطيع كل خطيب امتلاك ناصية الكلام حين لا تنفع اللغة؟!

«برا»... «برا»... «برا»... قبر براني... لغة برانية...

أجواء جوانية...

رائحة البحر تشبه رائحة المقابر... «برا» لا تتشابه الروائح... ولا تتشابه الصور... «برا»... ياالله «برا»...



الحــذاء(*)

تذكرنى ملامح وجهه غير المنسجم بالقس الذى كان يتردد من حين لآخر على بيت ابن جارى الأيمن الذى اعتنق المسيحية رغم تشدد أبيه المعروف منذ مدة...

كان الابن فى أيام الصبا لما كنا نلعب فى «رأس» الملاح، يحلم أن يدمر العالم وأن يرأسه... كان يرسم مدينة على الحائط بالطباشير ويدمرها بعد ذلك بشكل عنيف لا يتحمله جل الأطفال آنذاك... كانت تنشب بينه وبيننا معــارك ضارية... كلما استقر دنا به خــارج المــلاح نكيل له كافة أشكال الضرب... وعندما يستفرد بأى واحد منا يضع أسفل حذائه ذى الكعب العالى فوق صدغه... كان يتصيد أعداءه ويفتك بهم بضربة أو ضربتين ثم يفر...

ها هو الآن يعود إلى المدينة محفوفا بالعسس فى سيارة «ليموزين» فارهة... يتوسط صدره صليب أصفر براق ويضع فوق رأسه قبعة

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان «أشخاص» للفنان السورى يوسف عبدلكى.

سوداء أعلاها مربع الشكل، يتدلى ثوبه الأسود الطويل فيغطى رجليه ويتبعه ماسحا مدخل الفيلا التى يقطنها...

يظهر من خلال طقطقات حذائه أنه لازال مولعا بالأحذية ذات الكعب العالى... لكن، هذه الأبهة! مال أم إيمان؟ نعرف أنه كان يستنسخ رسائل الغرام والعقوبات الكتابية التأديبية ويبيعها للمراهقات والمتقاعسين من تلاميذ الفصل...

راسل كافة أصدقاء/ أعداء طفولته للالتحاق بحفل عشاء سيقيمه على شرفهم...

اجتمع أبناء الدرب واشتروا حذاء بكعب عال يشبه أحذية الـ"Cow-boys"، وضعوا «فردته» اليسرى فى علبة ورقية أنيقة ولفوها بإتقان بورق الهدايا المذهب اللامع...

فى اليوم الموالى غادر حىّ الفيلات قبل غروب الشمس حيث ساد الأحمرار أفق الرؤية... ولم نكد نميز سيارته الطويلة التى كانت تغادر المدينة فى اتجاه غروب الشمس...

فى الشهر الموالى لم يتوصل عمال الكنيسة من أبناء الدرب برواتبهم فأغلقوها وباعوا أثاثها فى صمت مع احتفاظ أحدهم بملخص كتاب عنوانه: «جماجم تحت الأحذية»... كما نظم فنانو الحىّ معرضا تحت عنوان : «جمالية الأحذية»...



صـــيد...(*)

أَلِفَ الساحة وألفته... فى بعض الأحيان يحس الإنسان أن بعض الأشياء والأماكن قد ألفته وأصبحت لها علاقة به... قد نحدس ذلك بمجرد اختفاء تلك الأشياء أو الأماكن عنَّا أو اختفائنا نحن عنها...

قد تتطور علاقتنا بالأماكن إلى درجة أن تصبح رأس مالنا المادى والرمزى... فالإنسان هو المكان: صانعه، سيده، حارسه، عرَّابهُ، صانع معناه...

بدأت علاقته تشتد بالساحة منذ صغر سنه... أصبح ذاكرتها وأصبحت جزءا من ذاكرته، يؤرخ لتحولاتها ونكساتها، امتهن بها حرفا شتى أفلس فى جلها، تعلم لغات ولهجات لا يضبط تضاريس أهلها...

فى بعض الأحيان تتوقف حركة الرواج بالساحة، ويصاب كل شىء فيها بالكساد، فيضطر إلى تغيير مهنته بسرعة، هناك بعض المهن التى لم يقض فى امتهانها يوما واحدا...

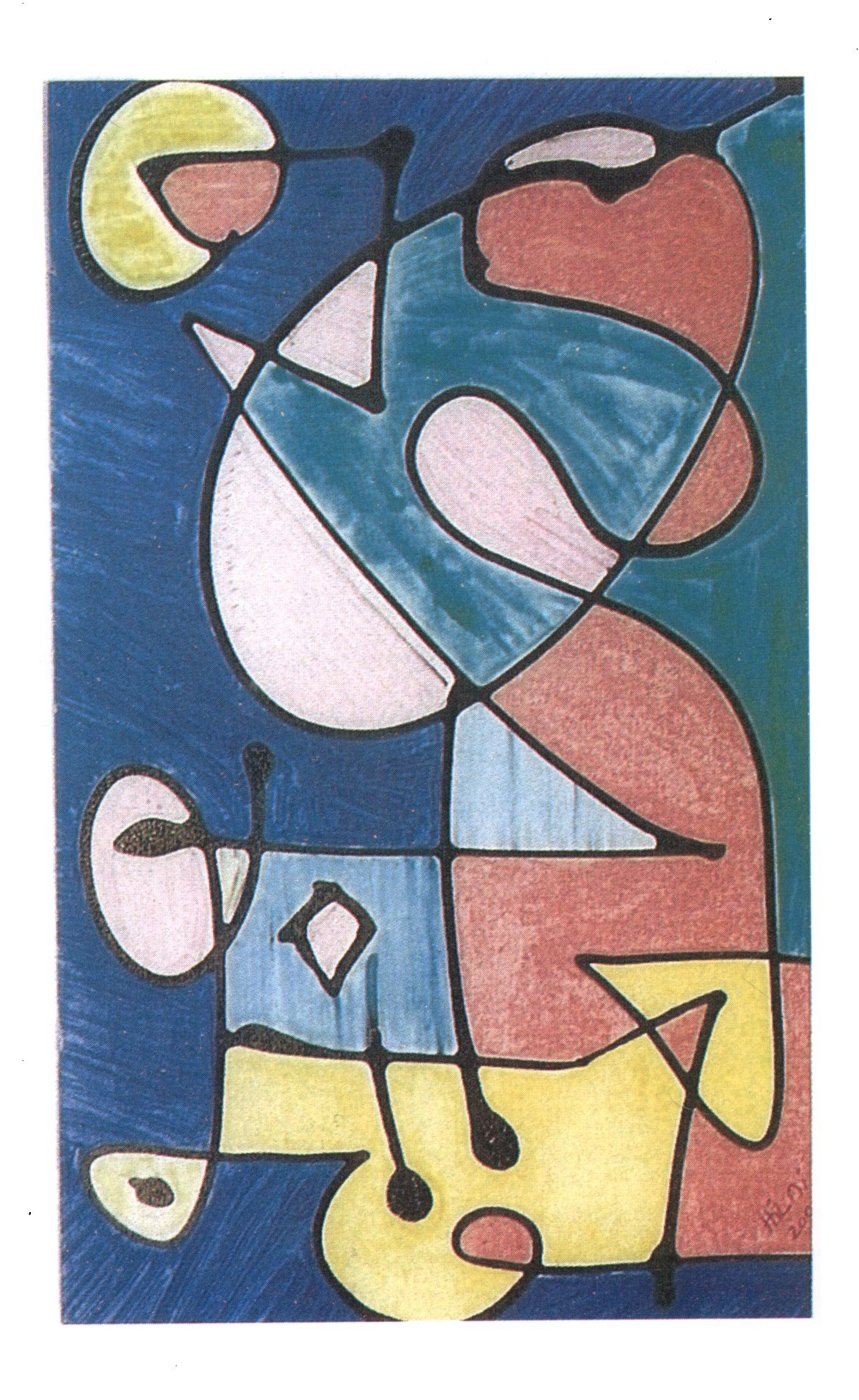
(*) مستوحاة من لوحة بعنوان "Le charmeur des serpents" (١٩٠٨-١٩٠٩) للفنان النمساوى Alfred Kubin.

ضاقت نفسه ذرعًا بالساحة واكتشف أن الأوكسجين الذى يتنفسه بها لم يعد يمر بشكل عادى عبر شعيبات أنسجته الرئوية... حمل نايه وصعد إلى الجبل... رأى المدينة من فوق، بدت صورتها مضببة ولم يستطع تحديد دروبها وأزقتها الرئيسية... ألغى من خلده فكرة التدقيق فى الأمر لأنه أتى إلى هنا للتخلص من المدينة... تساءل فى قرارة نفسه: من يتخلص ممن؟!

بدأ يعزف ألحانا تثير مشاعر غير واضحة... كلما حاول «إقفال النغمة»، أحس بشىء ما يدفعه إلى مواصلة العزف... فتح عينيه ليستفيق من اندماجه الكلى فى اللحن... شاهد ثعبانا صغيرا يستجيب للعزف بشكل أخاذ للغاية... دفع نحوه غشاء الناى واستمر فى العزف... دخل الثعبان الغشاء... سارع إلى إغلاقه بالخيط المشدود إليه... حمله إلى الساحة... باعه بثمن محترم... عاد فى اليوم الموالى فاصطاد ثعبانا من نوع آخر...

عاد فى اليوم الثالث... فى اليوم الرابع...

ما عاد جزءا من الساحة ولا عادت الساحة...



القـــلب(*)

لك قلب كبير أيها الزمن... قَلَّبْتُكَ أوراقًا أوراقا فلم أفلح في قلب موازين مواقفك المتقلبة...

ظل قلبي يخفق للناس جميعا... كان قلبا ضعيفا وهشا... كل متألم يتألم بقلبي... كل لون يتلون به دمي، كل طفل يبكي بقلبي، كل مريض يتألم بقلبي، كل عازبة أتزوجها بقلبي، كل النقود لا قلب لي عليها، كل ممتلكاتي البسيطة لا قلب لي عليها، وإرثي أيضا... لا قلب لي عليه...

فجأة انقلب كل شيء... من أدخلتها قلبي وظننت أني وإياها قلب حلَّ بدنيين، انقلبت علي وحاولت إدخالي وإخراجي إلى كل القوالب الجاهزة وغير الجاهزة... كنت أرى العالم بعينين متسعتين أكثر من اللازم...

كنت أغض الطرف عن تقلباتها وانقلاباتها رغم شيوع بعض الأخبار غير السارة عن سيرتها... لا يهم القلب أو الانقلاب... بل لا يهم أن تنقلب ما دام القلب لم ينقلب، ولا شيء يدوم على الثبات...

(*) مستوحاة من لوحة بدون عنوان للفنان المغربي إدريس حلمي.

قلبت عاداتي وغيرت أسلوبي بدرجتين مائويتين عن المعتاد... جهة اليسار طبعا... حاولت أن أمسح خريطة تحركاتها وعلاقاتها طبوغرافيا... كل الدلائل الأولية تشير إلى شيء واحد لا شريك له: الانقلاب... الانقلاب... انقلبت المدينة... انقلب الناس... انقلبت الأحياء... أين أنا؟!

تساءلت في قرارة نفسي: لماذا لا أقلبها؟ ربما أرتاح، ولو مؤقتا، إلى أن أجد لنفسي مخرج صدق مع السالكين غير الخائفين من تقلبات المجهول...

لم تفلح خطتي رغم استجابتها للقلب ولتقلباتي...

ألم أقل لكم في البداية أنها تفضل رؤية العالم بعينين واسعتين... إن الطبيعة تكره الضيق بطبيعتها... كما إنها أرادت لنا أن نرى العالم بمنطق مزدوج... ولا داعي للمراوغة أيها الشُّكَّاك المنقلبون!

ما فائدة القلب إذا كان صاحبه لا ينقلب؟! إن القلب انقلابي بطبعه، فليكن الإنسان كذلك... «القلب فيه وفيه»: ألوان وأشجان...



اليـــد(*)

قَدِمُوا فى البداية إلى الحيِّ العتيق من أجل استكمال مناسك زيارة الأضرحة القديمة وممارسة كافة الشعائر والطقوس الروحية... لبثوا بعض الوقت بعد انقضاء مدة ممارساتهم الدينية، اقتنى بعضهم دكاكين قديمة وحافظ عليها كما هى، مارسوا مهنًا بسيطة عدة كترقيع الأحذية القديمة وإصلاحها، وبيع الخردوات، والخياطة، ولحم الأوانى المصنوعة من النحاس والألمنيوم، وممارسة السحر بكل أنواعه... كانوا متقشفين فى كل شىء بما فى ذلك الضروريات البيولوجية الطبيعية...

بعد ذلك بدأ جيل آخر منهم يأتى كسياح لزيارة الأماكن المقدسة وتصويرها بدقة متناهية... ولج الأبناء الجامعات والمدارس العليا المتخصصة بالداخل والخارج، وتخصصوا فى العلوم الإنسانية خاصة... نزلوا إلى الميدان...

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان «إرادة الحياة أقوى» للفنان الفلسطينى إسماعيل شموط.

أسسوا المراكز الثقافية والجمعيات الخيرية واهتموا بالنساء والتعليم والديمقراطية والفلاحة... اقتنوا الأراضى تحت يافطة الاستثمار وشيدوا معامل السلاح والحليب وزرعوا الورود والشوك وطحنوا الحبوب والأحجار...

بدأوا بالسيطرة على كل شيء: ثياب العروس والعريس، مزمار الموسيقى والقديس، وورود عائشة ومريم...

خرج الناس جميعا، مات الشيخ، مات الطفل، ماتت المرأة... ضاعت الأيادى والرؤوس والأرجل، واختلطت المآتم بالأعراس... اشتبه الفرح بالقرح، وصار الضحك كالبكاء، والنوم كالاستيقاظ...

ظنوا أن اليد التى تُقطَع، والرجل التى تُبتَر و... و... لا تقدر على الحركة من جديد... قد تقتل العظام وهى رميم فى بعض الأحيان... القوة لا تقتل دائما...

اليد يد حتى ولو انبثقت من تحت التراب...


Осень счасливая
Блестящая яка
золото съ зрѣл
мъ Виноград
мъ съ хипльнь
Виномъ

حساسية(*)

الصباح ينافس المساء، الزوال ينافسهما معا... سطوة الجمال تزيد الحياة تفاؤلا وتكسر شدة العنف الإنسانى تجاه النفس وتجاه العالم وتجاه الآخر... تساءل عن سؤال الجمال فى الطبيعة؟ هل كل فصل يثوى فى طياته خصائص من الفصول الأخرى؟ هل هناك ربيع خريفى وربيع شتوى وربيع صيفى؟ أليس هناك إلا ربيع «ربيعى» وانتهى الأمر؟

حسب معلوماته التى راكمها عبر قراءات قليلة، توصل إلى أن لكل فصل نكهة خاصة تختلف حسب المناطق والقارات... عندما خرج فى الربيع الماضى وحيدا للوقوف على جمال الكون، واختلاف الألوان فى كل تجلياتها، والوقوف على الفروق النوعية بين الزهور والورود... لم يستطع بكل معارفه ولغاته اللونية أن يعبر عن كل الألوان... توقف وسط مرج أزرق يشكل شموسا، لكنه يضم فى أدق تفاصيله تدرجات زرقاء مدهشة... هل الأزرق ساحر إلى هذا الحد؟ ربما ذلك ما يفسر انشغال الناس به

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان L'automne للفنان الفرنسى (من أصل كرواتى) Mikail Larinov.

أكثر... إنه اللون الطاغى على الكون كله... يكفى أن نقيس السماء والبحر مع اليابسة دون احتساب اللون الأزرق فيها...

عاد مساء إلى المنزل، تغيرت رؤيته اللونية للوجود، أصبح يعشق الأزرق... يلبس الأزرق، يضع على عينيه نظارة زرقاء، أثاثه أزرق، يأكل فى الأوانى الزرقاء، إضاءته زرقاء... اهتم بالكتب الزرقاء دون سواها فتشكل لديه وعى أزرق: لا يستطيع أن يناقش خارج دائرة الأزرق... تلك الدائرة التى أجبر جل روادها على الانسحاب منها بعد تعصب صاحبنا للونه المفضل، كما انسَحَبَتْ منها هى أيضا... تقول إنها أصيبت بفقر الألوان بعد أن تحول المنزل إلى سجن أزرق! بل أصبحت لها حساسية خاصة تجاه الأزرق... أصبحت تصاب بمرض حبيبى يكسو عنقها وبعض الأماكن الحساسة فى جسمها كلما ارتدت الأزرق، تكاد تختنق...

انفصلت عن الأزرق وانفصل عنها... حقق كل منهما رغبته فى الانفصال، لم تكن ترغب فى الزواج من الأزرق، جربت كل الألوان... لم يجرب أى لون... آمن بأن الأزرق واهب كل الألوان ضاربًا تاريخ اللون عرض الحائط... ارتكز فى دعواه هذه على حكاية قديمة عثر عليها بإحدى الكتب الزرقاء التى ابتلى بها، تسرد أن سبب خصام آدم مع حواء خلاف عميق حول أصل اللون الأزرق... يقول إن المرأة تسعى منذ البدأ إلى تلوين الحياة التى كانت فى الأصل زرقاء بوصفات لونية عديدة مما ضاعف توسيع الهوة بينهما...

المرأة بيضاء... الرجل أزرق... بداية الحكاية فى الكتاب الذى بين يديه ونهاية حكايتى معكم...



المتـــاهة(*)

رفض الطفل الصغير أن يلعب بالمتاهة التى منحها إياه خاله المقيم بالخارج... كانت المتاهة تشبه الرحم وهو يحضن جنينًا مقلوبًا رأسًا على عقب... حاول الخال أن يدرب الطفل على طريقة الاستعمال مع التركيز على الأزرار التى تصدر أصوات حيوانات أليفة... عندما تصل إلى مستوى معين من اللعب يشتعل ضوء أحمر وسط المتاهة ويعم الظلام تجاويفها الغائرة... ضحك الطفل، أعجبه منظر الاشتعال والانطفاء... انجذب إلى اللعبة بحماس أكثر من الأول...

كلما فشل الطفل فى الوصول إلى مرحلة من المراحل المعقدة صدر عن اللعبة صوت ثقيل بالإنجليزية قائلا: "Go"...

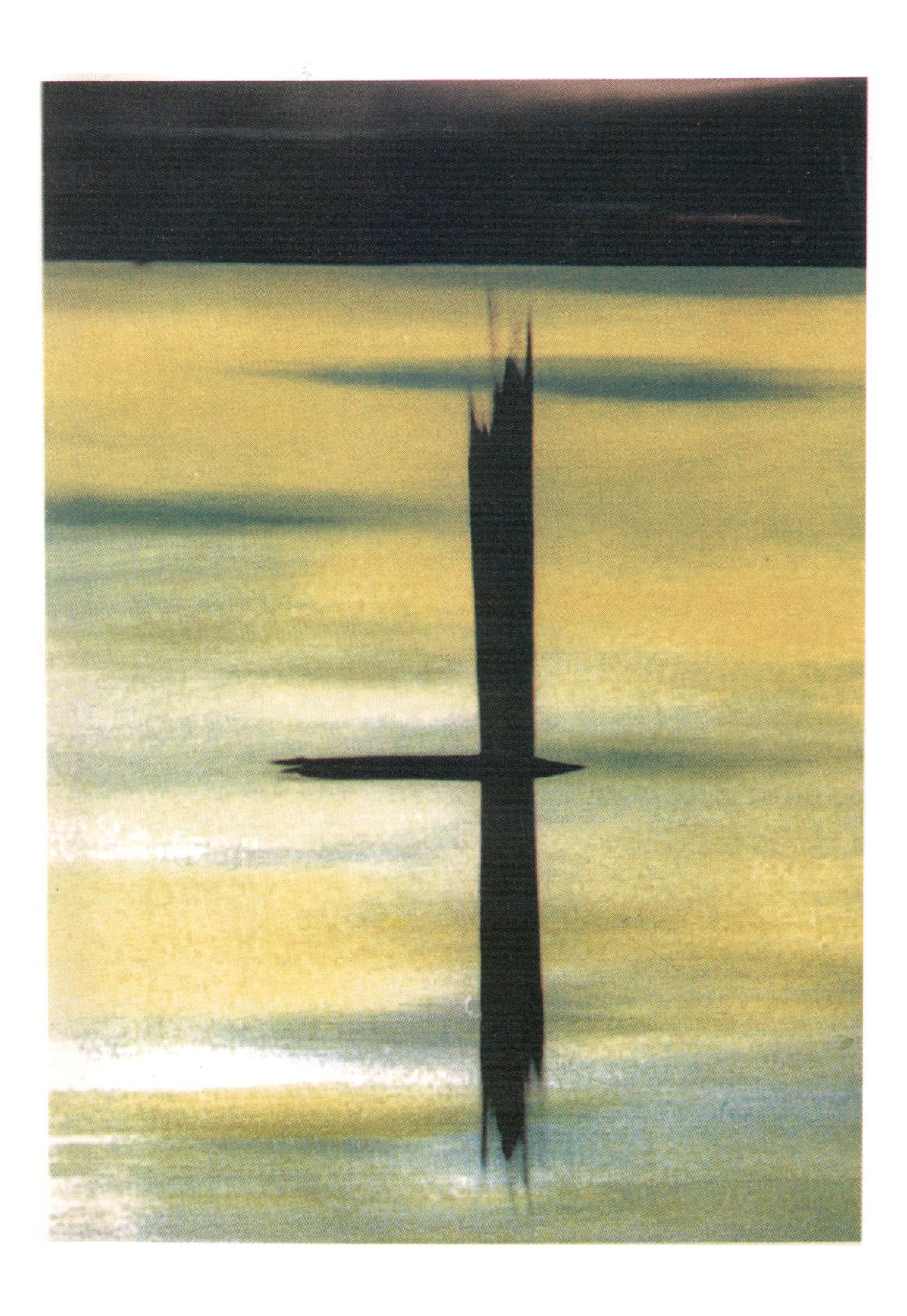
يزداد الطفل عصبية حين يفشل ويجازيه الصوت: "Go". أصبح يردد تلك الكلمة صباح مساء، بل أضحت لا تفارق لسانه، كلما رفض الأكل يقول لأمة "Go"، وإذا لم يرغب فى مبادلة أبيه قبلة الصباح يشنف أسماعه: "Go".

(*) مستوحاة من لوحة بدون عنوان للفنان المغربى إبراهيم أشيبان...

يترقب قولها عندما يخطئ أثناء اللعب فيلقى اللعبة بعنف حيث يتزامن سقوطها مع "Go" الصادرة عنه وعنها...

فكر الأب والأم فى طريقة تربوية لإخراج الابن من هذه الورطة التى تزيد من انفعاله وعصبيته... أخرجاه فى المساء إلى الحديقة المجاورة لمنزل خاله... التقوا الخال صدفة رفقة ابنته الصغرى... جلسوا على إحدى الكراسى الحديدية وتركوا الأطفال يركضون بين أشجار الحديقة وممراتها التى تشبه المتاهة أيضا...

اختفى الطفلان بين الأشجار... سمع الآباء صوتا يرتفع: "Go"... هرول الجميع صوب مصدر الصوت... اكتشفوا أن الطفل يلهو بجانب بئر الحديقة... سألوه عن الطفلة... أجابهم: "Go"...



الأســـود(*)

... لم نعد نقوى على إطالة البصر صوب الأفق... صورته تطارد أبصارنا وتعميها ... يمر يوميًا خلال أوقات معينة بانتظـام على مسافة لا نكاد نميز حجمه، أو نتكهن بهويته بالضبط من خلالها ...

سواد يشبه الطائر وما هو بالطائر، يشبه الطائرة وما هو بالطائرة، يشبه الخفاش الضخم وما هو بالخفاش... قال البعض إن الطائر لا بد أن يزق من حين لآخر، أما الطائرة فتختلف من حيث الضخامة والسرعة، كما أن الخفاش لا يطير عاليا ولا يخرج فى الغالب إلا ليلا...

قيل إن أطفالا التقطوا على مسافة غير بعيدة من هذه القرية الصغيرة المنسية أقلامًا غريبة وألبسة غير متداولة... تحول الخبر إلى قصاصة أنباء تشغل شيوخ القرية خصوصا ... فكر الشبان فى تدبر أمر هذا الجسم المحير... بحثوا عن مرايا كبيرة وعكسوها صوب الجسم للتدقيق أكثر، استعملوا زجاجًا ملونًا كمنظار يخلص الناس من الشك... باءت كل المحاولات بالفشل...

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان «الطائر» للفنان اللبنانى رفيق شرف.

كان الفصل ربيعا، تموجات من الألوان وتدرجات لا حصر لها؛ تختلط الورود بمختلف أشكال الأعشاب ويندمج الكل بحقول القمح الواسعة الانتشار... تمتلك العائلات المنتسبة بعضها لبعض مساحات شاسعة من الأراضي... تحرسها كما تحرس أعينها... لا تحب أن يدخلها غريب أو يدمرها طائر...

شك الناس مرة ثانية في أن طائرا لم يسبق لهم أن رأوه، يخطط لشيء ما يعتزم القيام به في هذه الحقول النائية... غالبا ما يسبق طائر ما زويعة أسراب من نوعه! إن ثبات أجنحته وبطء حركته ينمان عن تخطيطه للإقامة الدائمة هنا أو عن نزول مفاجئ لنوعه...

في الصباح الموالي استيقظ الناس على إيقاع ضجيج بين السكان، جماعات صغيرة تتناقش حول أشلاء سوداء دقيقة متناثرة فوق الحقول... بدأت المحاصيل تسود يوما بعد يوم... الكل يفكر في سر الشبح الأسود... اجتمع أكابر القوم... جمعوا ما استطاعوا من الفتات الأسود، وأخذوا عينات من المحصول المسود وقلمًا أسود وبقايا قماش بنفس السواد أيضا...

انصرفت اللجنة متوجهة نحو المختبر الفلاحي بالمدينة...



خيــوط(*)

جمعتهم ظروف العمل... تنتمى كل واحدة منهما لمنطقة معينة... تتكلم لهجة معينة... لهما مستوى ثقافيا يعكس تكوينهما ومسارهما المهنى...

الأولى مكلفة بالتسويق والعلاقات مع الزبناء، والثانية مسؤولة عن الشبكة المعلوماتية بالإدارة من حين لآخر يتبادلان المعلومات المتعلقة بشؤون الإدارة... تتم هذه العملية بصعوبة بالغة وتحت يافطة إدارية محضة... لقد تهشمت خيوط التواصل بينهما، وأصبحت علاقتهما بالغة التعقد.

بدأت المشاكل منذ أن قرر مديرهما الحالى الجمع بينهما تحت سقف غرفة واحدة نظرا لضيق الإدارة وتزايد الأرشيف حسب الرواية الإدارية، أما رواية مديرة الموارد البشرية فتتحدث عن سباق خفى كان يدور بينهما بسبب إعجابهما بالمدير السابق... وهى تحاول الآن بتعاون مع المدير الحالى إطفاء نيران العاطفة السابقة عن طريق الجمع بينهما،

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان Deux femmes للفنان الفرنسى Le Corbusier من أصل سويسرى.

وذلك تماشيا مع آخر النظريات السيكو - سوسيولوجية الحديثة فى مجال تدبير الموارد البشرية...

تحكى الأولى أن هذا الجمع تعسفى ويخفى فى عمقه إقصاء من المشاركة فى مجلس الإدارة بسبب التوبيخ الذى تعرضتا له لأمر لا علاقة له بالعمل... أما الثانية فتؤكد أن عين مديرة الموارد البشرية تراقب حركات وسكنات المدير الحالى، وهى تحاول إبعادهما عن منافستها لوجود بَونٍ جمالى فارز بينهن... أقول هذا صراحة، دون لف أو دوران... «أرى أنه حرى بنا أن نجمع طاقاتنا ونواجه مخططات مديرة الموارد البشرية، التى تستغل سوء تفاهمنا وتزيد من إلحاق الأذى بنا...»...

قررتا نقل المعركة من قاعة عملهما إلى قاعة مديرة الموارد البشرية فى جلسة مصالحة سرية جرت بينهما على هامش لقاء غير مخطط له بالمقهى، الذى يوجد خارج المدينة...

تعتقد الأولى أنها حققت إنجازا تاريخيا حيث ستجر الثانية إلى متاهة سوف تتولى إدارة أزقتها باحتراز...

تعتقد الثانية أنها حافظت على أوراقها الرابحة وسوف تضرب المديرة بغريمتها الأولى...

أما المديرة فتهيئ أوراقا تشخيصية لأخطاء كل واحدة منهما قصد التمهيد لنقلهما إلى ملاحق الإدارة بالمدينة...



الحفــــل(*)

ما أحوج أهل الزقاق ٢٦ إلى الاحتفال بمرور ست وعشرين حولا على تأسيس منازلهم تقريبا... منازل مشيدة بطريقة تقليدية أنيقة تشبه خطاطاتها الهندسية ديكورات الرياض القديمة التى عادت من جديد إلى الواجهة بعد فشل هندسات صناديق عود الثقاب التى عادت من جديد إلى الواجهة بعد فشل هندسات صناديق عود الثقاب الحديثة التى نسكنها وكأن مهندسى هذا الزمن قد خرجوا من الجحور عوض المدارس العليا... تعود سكان منازل الزنقة ٢٦ على الاجتماع بشكل دورى، وتنظيم حفلات إنشاد جماعى، وموائد جماعية بأحد منازل الزقاق... علاقاتهم وطيدة... جلهم يشتغل بالحرف التقليدية بالمدينة العتيقة... زملاء فى المهن قبل أن يكونوا جيرانا فى الزنقة ٢٦.

احتضنت الزنقة احتفالاتهم وأحزانهم، انتصاراتهم وانهزاماتهم، بل أرخت لنمط عيشهم... كانت مقرا مفتوحا لأفكارهم النقابية ومطالبهم

(*) مستوحاة من لوحة بدون عنوان للفنانة المغربية فتيحة بنموسى.

المهنية ضد المجالس الجماعية التى كانت تريد أن تحولهم وتحول سلعهم إلى أشياء فلكلورية تؤثث فضاء المدينة دون روح...

اشتهر سكان الزنقة ٢٦ بروحهم المرحة وتضامنهم المهنى المتميز... هذا الحس الذى بدأنا نفتقده فأصيبت مطالبنا بالخراب وكثر المندسون حتى فى ثنايا ثيابنا... كانوا جماعة حصينة منيعة لا تقبل التنازل ولا يسهل اختراقها... فى إحدى حفلاتهم الدورية أعجب أحد الفتيان بابنة قاطن المنزل رقم ٢٦، حيث كان منزله يحتضن الحفل الدورى... فكلف الفتى وسيطا ينوب عنه - حسب الأعراف - ليفاتح والى الفتاة فى اليوم الموالى لترتيب طقوس الخطوبة... وافق أب الفتاة دون تردد، ذاع الخبر بين سكان الزقاق، وفرح الناس لذلك... فالابن وريث منزل ودكان أبيه الوحيد وصاحب ثقافة مهنية متميزة، أما البنت فلا يطعن فى استقامتها أو جمالها... رغم مغادرتها المبكرة لحجرة الدرس، استطاعت أن تكون شخصيتها مما تعارف عليه سكان الزقاق ٢٦ من ممارسات و...

فى اليوم السادس والعشرين من شهر شعبان أقام السكان حفلا بهيجا لهما؛ جلبوا أحسن الهدايا من منتوجات ورشاتهم الحرفية، رقص النساء والرجال والأطفال إلى حدود الصبح...

دخل العريس مدة إلى بيت عروسه فى خلوة تقليدية معروفة... خرج بعد مدة قصيرة متجها صوب أبيها... ناداه! وشوش فى أذنه اليمنى... صوت المُنْشِدين صاخب...

انقسم أهل الزنقة ٢٦ إلى مؤيدين ومعارضين... تحول انقسامهم الأخلاقى إلى الورشات... باع بعضهم المنازل... اكترى الأجانب الرياض... باع أحدهم الورشات وغير أحدهم مهنته... قل الأقبال على سلعهم... هل هى لعنة أم صدفة؟!



النحيب(*)

اشتغل سنوات طويلة بأماكن متعددة من الوطن... رحل كثيرا، عرف أناسا لا حصر ولا عد لاختصاصاتهم... كان يحب الألوان حتى النخاع، بحكم عمله الاستراتيجى، لم يعرف للاستقرار طعماً، كان فى البدء يعشق الترحال والتجوال والمغامرة والتعارف... كل من تعرف إليه يستأنس بلطفه... ودماثة خلقه، أما النساء فبالعشرات ينمن فى ألبوم صوره، يغتسلن بعيون الناظرين من معارفه: سحنات مختلفة وتسريحات شعر غير بريئة وتقليعات تنم عن أشياء مغايرة وماكرة فيما يخص الذوق والشبق والانتماء...

بدأ التعب يتسلل إلى نفسه ويحس يوما بعد يوم بثقل المهمة التى يزاولها... سيشيخ ولن يجد ابنا يسأل عنه أو زوجة تمده بكأس ماء لابتلاع حبة أسبرين فى وقت الكرب... ويتقاسم معها ضنك الحياة...

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان «معرض مطر» للفنان الأردنى عصام طنطاوى.

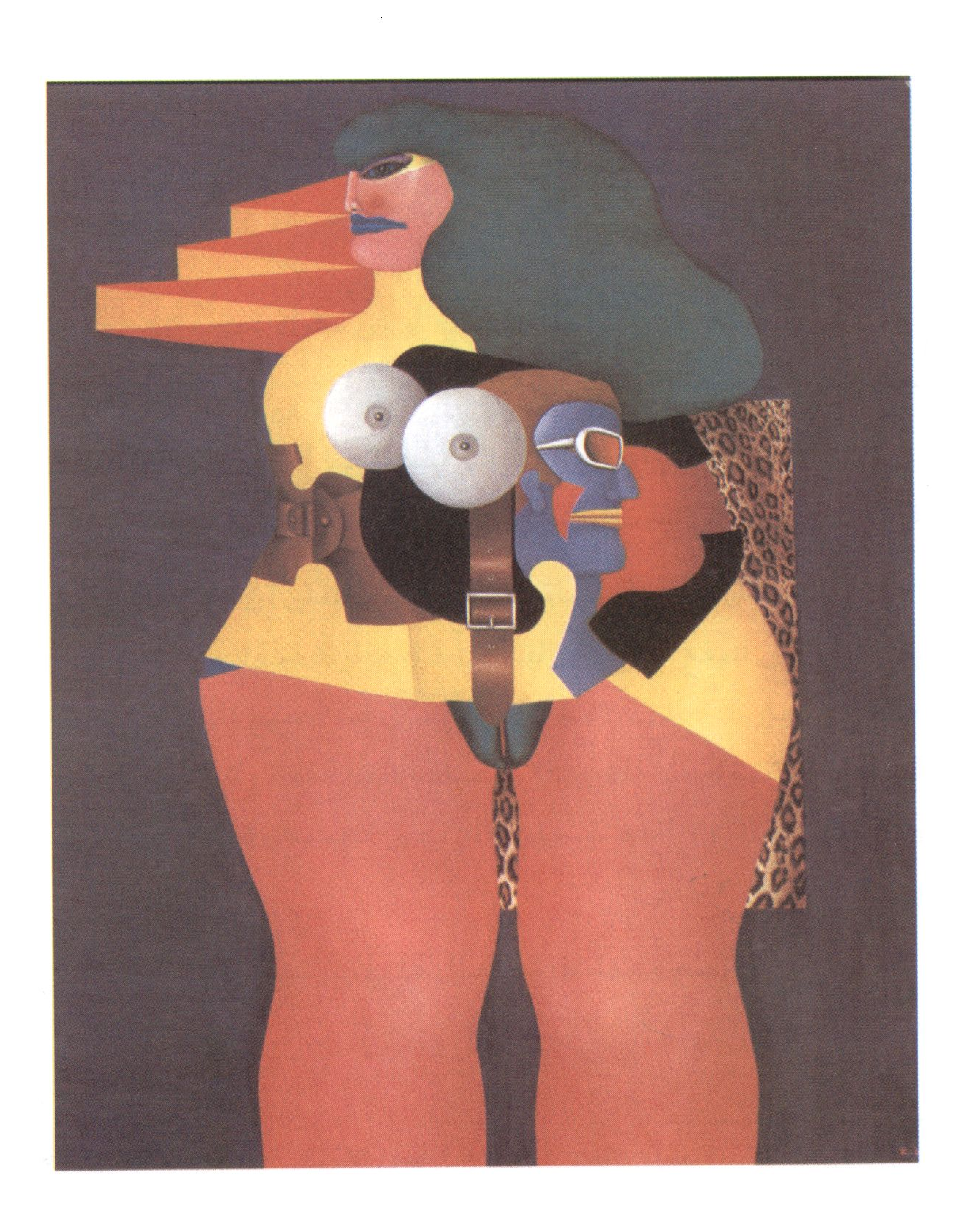
كان كل حلمه يتلخص فى الابتعاد ما استطاع عن أنفاس المدينة المختنقة، أن يقتنى قطعة أرضية بالضواحى ويقوم ببنائها على مزاجه وأن يطليها بالألوان التى يرى أنها تعبر عن أحاسيسه وآماله وغبنه...

يتصور أن منزله لن يشبه فى شيء كتل الاسمنت المثقوبة التى ملأت المدينة الحديثة وقتلت ملكة الذوق فى الإنسان المعاصر... نوافذه مشرعة على كل الواجهات، مطلية بألوان الطيف... مداخله غير معقدة ولا تشبه الغيران التى يسوقها المضاربون العقاريون تحت يافطة السكن الاجتماعى والاقتصادى بمبالغ خيالية سوداء...

يا للهول !... يا للهول مدى الحياة!...

نام قرير العين بعد أرق شاق... بنى البيت الذى يحلم به... أضفى عليه الروتوشات التى أراد... سقط المطر بغزارة... رآه يبكى بدموع ملونة، فبكى بدوره متأثرا بالمنظر... بكى... بكى... انتحب... انتحب...

هل امتلاك السكن يعنى أن السكينة ستسكننا؟!



عـــادى(*)

عندمـا تسـألـه عن شـىء مـا تقـوم بـه أو أى سلوك غـريب تنهجـه من حين لآخر، تجيب بلازمتها الملحنة: عادى...

هل سمعت أنهم اخترعوا بطنًا اصطناعيا لم تعد المرأة بموجبه فى حاجة اليوم إلى أية حمية أو مخاض؟... تجيب: عادى...

هناك مقال فى مجلة نسائية متخصصة تناقش أن قضية المرأة لم يعد لها نفس الوقع الذى كان لها سابقا، فالمرأة تحولت إلى عارضة متنقلة بالمجان... عادى... ما قيمة الجمال إذا أصبح اليوم خاضعا لسيطرة التكنولوجيا الطبية؟ ماعاد الأنف أنفا، ولا اللحية لحية، ولا العين عينا، ولا الخد خدا... ألم يخلق الجمال ليكون مشاعا بين المتذوقين؟... عادى...

حاولت أن أفتح معها نقاشا حول ما يوجد بحقيبتها اليدوية... عادى...

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان Lily au Léopard للفنان الأمريكى Richard Lendner.

بدأنا الحوار فى البداية حول نوع الحقيبة وشكلها وعدد جيوبها... قلت إنها ضيقة ولا تتسع ولو لكتاب من حجم الجيب... أجابتنى: عادى... يكفى أنها تتسع لعلبة سجائر ولفائف... عادى... إنها للأشياء الصغيرة الثمينة ذات الماركات المسجلة... عادى... رغم ضيقها، تسع العالم... هنا إيطاليا، فرنسا، الصين، الجابون... عادى... إنها حقيبة عابرة للقارات... كحاملتها تماما: تدور فى كل الاتجاهات... امرأة عالمية... تسير عموديا وأفقيا، يمينا ويسارا، تحت وأسفل... عادى... تلبس الثقيل والخفيف، الشفاف والعالى والمنخفض... عادى...

هل ستخترع البشرية العَالِمة امرأة «روبُو»؟ تكبر وتصغر، تضيق وتتسع... حسب المقاس... عادى!... هناك من يتنبأ بأن مصير العالم سيصبح رائقا... النساء سيمسكن قبضتهن على كل شىء وسيضع الرجل هذا الوزر الذى حمله طويلا... كم هو غبى هذا الرجل؟!... عادى...

لن تصبح الحرب من النوع الذى نرى الآن: ذكية جدا... ستصبح كلامية فقط... يمكن أن يتحول العالم إلى صراع على الرجال إن هم بقوا... عادى...

تقول إن الحروب القادمة لن تكون لا حضارية ولا اقتصادية... لن تكون بين الثقافات والديانات ولا على البترول حتى... عادى... ستكون حول الرجل العادى... الرجل الطبيعى... سيكون الصراع حول هذا الرجل كالصراع المحموم الذى يدور اليوم حول منتوجات الـBio ...

عادى... عادى جدا ... لأن الرجل أصبح يضايقنا ويهدد بنات جنسنا...
عادى... نريد ذلك، نريد أن نتكاثر...

نظرت إلى ساعتها... فتحت حقيبتها، أخرجت لفافتين، ناولتنى واحدة، امتنعت، قالت: غير عادى... حان وقت العمل... هزت كتفها وناولتنى **Une carte visite**... عادى... غَادِى نَتْهَلى فيك... عادى...



ملامــح(*)

لا بد أن شـيـئـا مـا يقبـع خلف ذاك الجدار، كل الدلائل تشـيـر إليه بالتأكيد، أنصاف دوائر حمراء وبيضاء، خدوش زرقاء وحمراء ورمادية... إنهـا الروتوشـات الدالة التى تعطى الانطباع أنه مـوجـود فـعـلا منذ مـدة هنا، لباسه الأبيض ووقـاره يفرض على زائريه مسافة يتحكم فـيـهـا دائما، له حدس لا يخطئ، كل من تنبأ له بشىء ما بلغه!

بلغ به الورع درجة من النحول لا يستطيع ناظره أن يميز جسمه من الجلبــاب والجســم الواهــن، لعبة أدوار لا يدركهـــا إلا صـاحبهـا أو الجلبـاب!

قِوَامُ مـائدته بعض الفـواكه اليابسـة والمـاء واللبن... فى كل أسبوع يشـد رحـاله إلى الجبل الأبيض حيث يلبث طيــلة يوم الخميس ولا يعـود إلا يوم الجـمـعـة بعـد العـصـر... يشـاهد النـاس نور المغـارة طيلة الليل... اختلق البعض منـهم حكـايات عجيبة كـاشـتـعـال النار فى بعض الأحيان

(*) مستوحاة من لوحة بدون عنوان للفنان المغربى رشيد أرجدال.

أو ظهور حِزَم ضوء متفرقة حول الكهف أو تبدل الألوان حول بوابته أو بزوغ شكل نورانى أصفر يشبه شمعة صفراء كبيرة وسط الظلام يقبض عليها شيخ تتبدل ملامحه بين البياض والزرقة...

يقصد بعض الناس من حين لآخر الشيخ، يشتكون له بعض الأمراء أو نوائب الدهر أو يطلبون حَكَامَتَه لفض بعض النزاعات المعقدة بينهم: يضع الكتاب جانبا ويشرب قليلا من اللبن، فيبخ الشيخ فوق مكامن الداء... يساعد كل صاحب كدر أو ضائقة... يأخذ على عاتقه ضمان أصحاب التجاوزات بعد تصفية قلوب المتنازعين وإصلاح ذات البين بينهم...

صعد الجبل كالعادة، ليلة الخميس تماما... لم يشتعل الضوء... لم يعد بعد صلاة الجمعة من اليوم الموالى... انتظره الناس... صعدوا الجبل... لم يعثروا على شىء ولا دليل...

هل الانتظار يعنى دائما الترقب الذى يسبق العودة؟ هل كل من رحل سيعود؟ ما معنى العودة؟ من يعود وإلى أين؟ هل ستتحقق نبوءات الطوباويات؟!



الجــرة(*)

تستيقظ باكرًا كل صباح لجلب الماء والحطب، تلتقى بجارتها وتتسللا من بين الأسلاك التى تُسَيِّجُ الغابة، حارسها لا يستفيق مبكرا لانشغاله ليلا بأشياء أخرى، يعرفها جميع سكان المقــاطعة المجــاورة: يتاجر فى الأخشاب وسط الليل ويسهر...

فى إحدى المرات، حين داهمهما الحارس منهمكتين فى حزم الحطب، هددتاه بقول الحقيقة أمام العدالة، فتراجع عن حجزهما بعد سلب حمولتيهما...

فى هذه الغابة المباركة يمكن استعمال المنبع كصنبور طبيعى للشرب، لأن المجرى غالبا مايصل ملوثا بفعل لهو الأطفال ومرور العربات والحيوانات والشاحنات...

بدأت تشتكى لزوجها الذى يخرج فجرا هو الآخر إلى المدينة للاشتغال بورشات البناء، كى يتمكن من ضمان قوت أبنائه الأربعة، من

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان «الفلاحين» للفنانة المصرية تحية حليم.

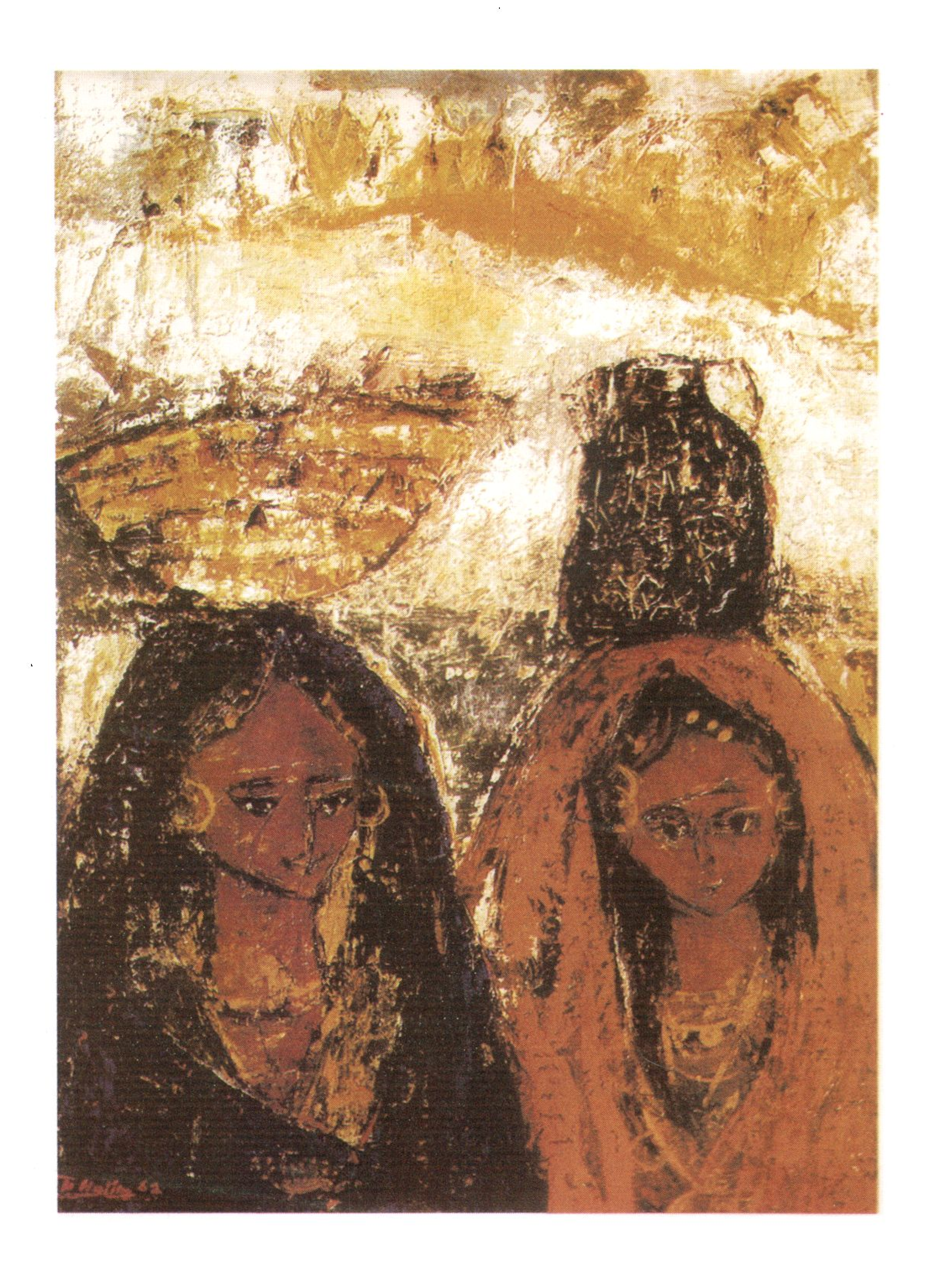
حين لآخر أصبحت تحس بألم يعلو جمجمتها، لم تعد تتحمل رفع الجرة أو حزمة الحطب فوق قنة رأسها كل صباح... وعدها الزوج بجلب بيدونات الماء الصالح للشرب كل مساء فور انتهائه من العمل... وبالفعل كان كذلك...

لم تنقطع الآلام رغم استعمالها لبعض الوصفات الطبيعية التى أملتها عليها جارتها... استعملت بعض المسكنات التى جلبها الزوج من المدينة دون استشارة طبية... لم يفلح الدواء الشعبى ولا العصرى فى تسكين الألم...

يزداد العناء مع مرور ساعات الليل، لم تعد تحتمل الصداع فترتفع آهاتها إلى السماء، يستيقظ الأبناء، فترق قلوبهم لحال الأم... لا مفر من الدموع، البكاء سيد الليل... يتضاعف ألم الأم لتأثرها الشديد بحزن الأبناء، تتظاهر بالشفاء وتكتم الألم راجعة إلى النوم بينهم...

فى اليوم الثامن حملها الزوج على دراجته الهوائية إلى مستشفى المدينة الرئيسى، أمر الطبيب المتخصص بإبقائها إلى غاية استكمال الفحوصات، حالتها لا تحتمل التأخير... عاد الزوج للبقاء جنب الأطفال... لم يستطع النوم جيدا لتآمر جميع الأفكار السيئة عليه...

عاد صباحا إلى المستشفى... سأل الطبيب عن حالة زوجته... لم يستطع الطبيب إخباره بحقيقة الحالة، اكتفى بسرد كلمات الطمأنة... أكد له محدودية الأعمار!



الجـــدارية(*)

سكن الحى منذ ولادته، صاح فيه صيحته الأولى، فتح عينيه على جدرانه وأبوابه، مشى بين أزقته ودروبه، عرف أناسه ونساءه وفتيانه عندما أصبح يافعا، قرأ فى المسجد العتيق، ولج المدرسة به، تعلم ركوب الدراجة الهوائية به أيضا، جرح به، بكى به، أحب الرسم به، استمع وخفض الحكايات والأغانى الشعبية الأصيلة به...

كبر فعشق واختار الفن التشكيلى، تابع دراسته العليا بالخارج... انقطعت أخباره ولم نعد نسمع عنه إلا النزر القليل منها، لم يعد يحضر خلال الصيف لزيارة الوالدة وقضاء العطلة رفقة أصدقائه بمدن الجنوب التى عشقها ورسم لوحات جميلة لمناظرها وبواباتها وبورتريهات لبعض حسناواتها...

بدأت أخبار ابن الدرب تأتى إلى الدرب بين تضاعيف المجلات المتخصصة فى الفن وتتناقلها وكالات الأنباء الأجنبية: معارض فردية

(*) مستوحاة من لوحة بدون عنوان للفنان المغربى محمد نجاحى.

وجماعية مع كبار الفنانين العالميين، مشاركات فى الندوات المتخصصة والبينالات ومحترفات التشكيل والنحت... تناقل الفنانون والصحافيون والمهتمون أخباره... بل هناك من نادى بالاحتفاء به فى وطنه الأم وتحميله مسؤولية الفنون به، والاستفادة من تجربته فى معاهد التكوين الفنية بالبلد...

اتصل به المسؤولون وعرضوا عليه أفكارا عدة... رفض واعتذر بدعوى عدم استعداده فى الوقت الراهن لذلك...

عاد خلال الصيف إلى البلد... دخل الحى الذى تربى فيه... لا جديد ولا تغيير... الجدران بدأت تتآكل... تقادم البنيان... البوابات... آه على البوابات!... باعتها مافيا الـ**Antiquite** وعرضتها بالحديد والقصدير...

اغتاظ كثيرا بسبب حدوث هذه المسائل المخجلة... هذه الأيادى القذرة التى دمرت الأصيل واحتفلت بالبشاعة... ماهذه المضاربات الفجة التى قتلت التراث بدعوى العصرنة؟! هل العصرنة وَأْدٌ للتراث؟!

قرر تأسيس مؤسسة خاصة تحمل اسمه وتضع من بين أولوياتها الأساسية التربية على التذوق الجمالى... تبنت مؤسسته فى أول نشاط لها إعادة إنتاج الجمال الذى راح مع الزمن وامتدت إليه الأيادى الآثمة... رسم الجداريات واسترد الأبواب ودعا السكان إلى المحافظة على الثروة الرمزية التى لا يدركون قيمتها... أفلست مؤسسته ولم يرد المسؤولون دعم أفكاره... طلب من المؤسسات الأجنبية ذلك ففعلت...

بعد استرداد الدرب لجماله، أجمع الناس على إناطته تسيير المؤسسة... حزم حقائبه وعاد إلى منفاه الفني... ترى هل سيعود للدفاع عن فكرته ولو بتمويل أجنبي؟! لماذا يفر أصحاب الأفكار؟!



النقطة(*)

هل سرق الشيطان النقطة أول الأمر؟ هل انتقم لطرده من الجنة بعد رفضه السجود لآدم؟ كلكم تعرفون الحكاية طبعا... إلا من...

للنقطة أهميتها الخاصة فى التاريخ للكتابة العربية خاصة... فبعد أن سرق الشيطان - كما اتهمناه وفقا لمقتضيات الحكاية - النقطة فى البدء... دون الناس كتاباتهم الأولى - والعهدة على من روى - جرداء من النقط... ولإعطائها المكانة اللائقة بها فى الخط العربى، جعلها الخطاطون العرب مقياسا للخطوط العربية ككل حسب مقاسات الأقلام التى يصنعونها من القصب الخيزرانى الذى يستعمل أيضا فى صناعة قصبات الصيد التقليدى للأسماك...

لقد تسلطنت النقطة على الكلام وأضحت لها خصيصات جمالية لا مناص لنا عنها... أصبح لها طابع إلزامى قهرى على الكاتب والقارئ معا...

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان «الحسن» للفنان العراقى حسن المسعود.

للأسف لم تستطع الأساطير أن تخلق للنقطة حكاية ما تجعلها مغلفة بطابع خرافى ما ! بل لم تستطع النقطة عينها أن تحجز لنفسها مقعداً فى نادى الآلهة كما فعلت الأشياء فى الأساطير اليونانية والشرقية القديمة! هل النقطة صنيع عربى خالص؟! هل سبب عجزها الميثولوجى يرجع إلى ذلك؟!

يحكى أن النقطة تسللت من «قراب» الشيطان عندما خرج من الجنة وتاه فى شبه الجزيرة العربية (ويا ليتها سقطت فى مكان آخر!) باحثاً عن آدم وحواء بعد إسقاطهما من الفردوس... تاهت النقطة فى الصحراء... جاعت وعطشت... اغتصبها آدم، ونكلت بها حواء... خدعها السراب الذى مافتئت تجرى وراءه... كانت متجهة أول الأمر إلى مجمع الحكماء الشرقيين... رجعت من وسط الطريق... أتعبها المشى ودخلت فى دوامات «الدوخة» الشرقية... أفلتت أيضا طريق الحكماء الإغريق لنفس السبب تقريبا مع تحوير بسيط فى الحكاية إذ أن مؤخرتها أصيبت برطوبة فى إحدى الأمكنة هناك... دوامات السراب خادعة...

هل لا زال الشيطان يلاحقها وما يزال مُصِراً على الملاحقة؟! لماذا انهزمت وأصبحت فوق كل الكلام إن لم نقل فى أسفله تقريبا؟! ل الكلام الذى لا تتربع فوقه أو تحته قد نجا منها أم خضع لغواية الشيطان؟!



الرهـــان(*)

فى كل صباح يعرج على المقهى الشعبى القريب من عمله، يأخذ كأس قهوة ممزوج بالحليب «نص – نص» وشيئا من رغيف السميد الخشن... يتسلم ورقة يتوزع السواد على بياضها بشكل قبيح... يسميها أصحاب المحل بالـ Programme ... يترك كأس القهوة والرغيف، ويذوب فى الورقة دون أن يفكر فى من حوله... يقرأ ويكتب أرقاما فى ورقة صغيرة يستلها من جيب سرواله الخلفى، ويزيل أخرى... اقترب موعد انصرافه إلى العمل، دنا منه النادل ونبهه إلى الساعة، التهم فطوره بسرعة البرق وكأنه تمساح رابض تحت الماء انقض على فريسته بنهم...

وهو فى الطريق إلى الإدارة، سمع حديثا بين سائحتين :

- **N'oublies pas le numéro 10...**
- **... aussi le 16...**

دق فى رأسه رنين الرقمين، أخرج المعهودة من الجيب المعهود، دون الرقمين ودخل... فى الثانية عشر عاد إلى المقهى... سحب ورقة من

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان Le cheval (1952) للفنان الايطالى Marino Marini.

الكونتوار... ملأها بدقة، دفعها ودفع الثمن إلى رجل ضخم يقف وراء آلة سوداء إلكترونية سرعان ما ضغط على بعض أزرارها ومنحه ورقة صغيرة، وضعها الموظف هذه المرة بعناية فائقة بين أوراقه الشخصية (بطاقة تعريف، بطاقة البنك الإلكترونية، بطاقة مهنية...) في الجيب الأيسر من قميصه...

رأى الناس في الليل يتدافعون حول جهاز التلفاز بالمقهى... أدخل رأسه من بين الأجساد المتراصة، تحمل الروائح المختلفة... اندهش... ماذا يرى؟ أحصنة تسير على العجلات!... لم يصدق... سأل جاره: هل ترى؟ أجابه: ماذا؟ أردف: هل هذا سباق رقمي؟ رمقه الآخر بنوع من الازدراء...

ثبت رؤيته على الجهاز بنوع من التركيز... نفس المسار ونفس الرؤية... جميع الخيول منزلقة بواسطة عجلات مطاطية...

انتهى السباق... أخرج الورقة... لم يصدق عينيه: ١٦-١٠-٣-١... جرى نحو الكونتوار... مد الورقة إلى الرجل الضخم... أجابه: مالي أراك تستبق الأيام؟ السباق غدا!



تفصيل(*)

رسمت بابًا ونوافذ، اعتبرت أن المخارج متعددة والاختناقات غير واردة... رغم أن لكل زمن رئة على مقاسه... قد يظن الإنسان أن السعادة، كل السعادة، فى شىء ما يريد تحقيقه، لكن سرعان ما يكتشف أن هذا الاعتقاد خاطئ وأن الحلم قد تبخر، وأصبح الحالم حبيس الشىء ذاته...

الباب الذى دخلته أول مرة خرجتْ منه يائسة، النافذة التى كانت ترى منها العالم انقفلت أمام عينيها لتنفتح على سديم مظلم... تقول: النور فى مكان ما من الجسم، فقط يجب أن نكتشفه...

كان الأب صباغا والأخ الأكبر نجارا... كان لكل منهما ركن خاص به فى البيت... يضع فيه أدواته وبقايا المواد الأولية التى يشتغل بها... كل واحد منهما حريص على التأكيد على عدم التفريط فى أغراضه... كانت تقبل كل الأوامر وتعتنى بالأشياء وكأنها تخضع لمراقبة شخص ما أو أنها قد ذاقت عقابا لا مثيل له جراء تهاونها فى تنفيذ الأوامر...

(*) مستوحاة من لوحة بدون عنوان للفنانة المغربية فاطمة أكنينير.

فكرت فى أن تعاملها مع تلك الأشياء الجامدة يجب أن يخضع لمنطق ما... كانت تجيد النقش بالحناء... أخذت من دولابها محقنة وبدأت تمتص بواسطتها الصباغة من العلب ذات الألوان المختلفة... تخلط ذلك وتنقش أشياء وأشكالاً وخطوطًا ونقطا على بقايا أخشاب ذات أبعاد ومقاسات مختلفة: مكعبة، مسدسة، مثلثة، اسطوانية...

اكتشف الجيران ركام أعمالها الصغيرة **Les miniatures** فاقتنوها منها بأثمان رمزية... أصبح أحد الرجال يتردد عليها بعد خروج أبيها وأخيها ويقتنى كل أعمالها... مرت الأيام والشهور فأصبحت سمعتها ذائعة بين أهل الحى دون علم أخيها وأبيها...

خرجت فى إحدى المناسبات إلى المدنية رفقة جارتها كالعادة، وبتوصية خاصة من أبيها مع تحديد زمن الخروج والدخول... قصدتا المدينة القديمة بحثا عن ثوب مناسب لتحضير لباس العيد... قادها الفضول إلى أحد «البزارات»... هزت رأسها فوجدت «لوحاتها» تزين المكان... سألت عن صاحبها، فأشار صاحب المحل إلى اسمه أسفل اللوحة... سألت عن ثمن أصغرها... فأغمى عليها...



أركيولوجيا(*)

استغرق البحث فى أركيولوجيا الخطيئة الأولى زمنًا طويلا، كثر فيه الكلام، ونشطت حركات التأويل، واستعان المولعون بهذا النوع من البحث الجينيالوجى بكافة التيارات والمدارس والاتجاهات...

اكتشف أحد الطلبة الباحثين فى مجال علم الأديان المقارن مخطوطا نادرا فى مكتبة أبيه، الفقيه الورع صاحب أضخم مكتبة للمخطوطات فى المدينة... أعجبته الطريقة التى رتب بها المرحوم الوالد جل مخطوطاته فكان ينبش من حين لآخر فى بعض الآثار، ولا سيما المكتوبة على الرق أو سعف النخيل... ولعل العارفين بالكوديكولوجيا أدرى الناس بأهمية هذه النوادر التى تنشط مافيا متخصصة فى إفريقيا والشرق الأوسط لاقتنائها بأبخس الأثمنة...

يحكى لى أحد الأصدقاء الذى كان يعد بحثا حول دول الساحل الأفريقى، أن بعض المخطوطات قد اشتراها بعلبة كولا أو علبة سجائر...

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان «مجموعة نبطيات» للفنان السعودى فيصل السمرة.

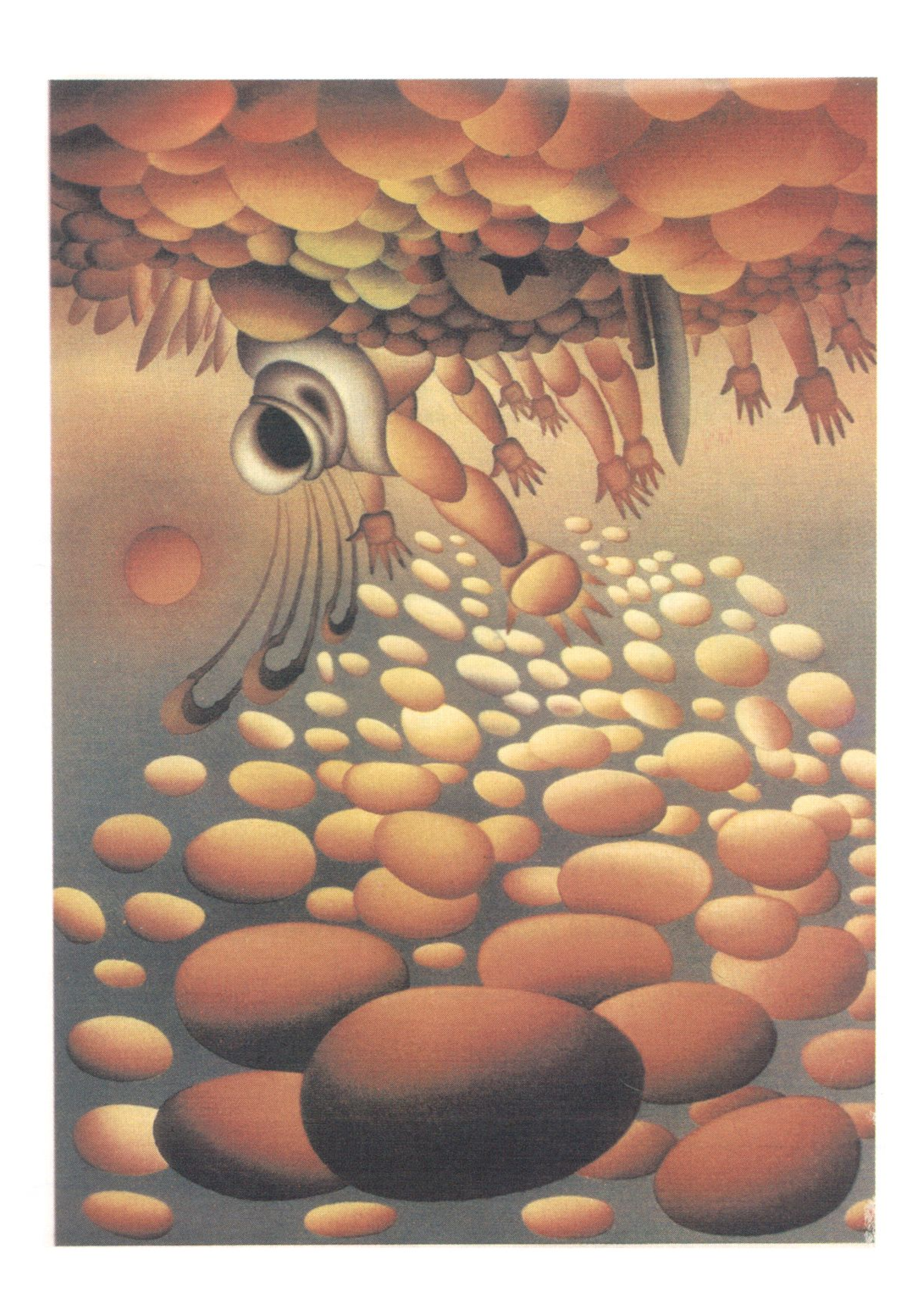
وحتى تتأكدوا من أنى لا أتحمل ذلك، فقد قطعت معه تعاونى العلمى وفشل كأستاذ فى مادته حيث تحول إلى تاجر فى أركيولوجيا الشعوب...

عثر الطالب - زمن كان... - على وثيقة نادرة تؤرخ للخطيئة الأولى... مكتوبة على رق مقطع بطريقة مفتوحة على تأويلات متعددة تذهب إلى أنها جزء من وثيقة أكبر من ذلك بكثير... به جذور زُغَيْبَات سوداء ناصعة السواد... مخضب بلون أحمر دموى... ونظرا لأهمية الوثيقة، اعتنى بها الأب بطريقة شفافة حَفِظَت وسطها، وضمنت لها الديمومة والوضوح والانبساط...

لشدة تعلق الابن بالوثيقة، وضعها على مقربة من المكتب الذى يشتغل به بوثيرة منتظمة لإتمام بحثه... كان من حين لآخر يتردد عليه أحد أصدقائه الذى أكثر من السؤال عن تاريخ الوثيقة، وأبدى إعجابه بالجانب الإيقونى فيها، واهتمامه بالبحث فى علم الإيقونات العربية **Iconologie arabe** ولا سيما الجانب الأركيولوجى المعرفى منه...

انقطع تردد الصاحب على صاحبه... ناداه عبر الهاتف من مدينة أخرى يدعوه للمشاركة فى ندوة علمية فى تخصصه...

عاد الاثنان من السفر... لم يسأل الصاحب صاحبه عن اللوحة... لم تعد فى مكانها...



القضيــة(*)

اشتد ولعه بالعلوم الطبيعية فى الأقسام التعليمية الأولى... أظهر ميولا فى البداية إلى معرفة طبيعة الأشياء الجامدة، وأكثر من الأسئلة عن نظام تكونها، وتأثرها بالمحيط الخارجى... ثم تحول اهتمامه شيئا فشيئا إلى الإنسان وتوصل ببداهته اليقظة لعمق الأسئلة الوجودية القلقة الثاوية وراء الوجود البشرى... أدرك أن منطق البشر يختلف عن منطق الجماد، فانصب اهتمامه حول الإنسان فى كل دراسته واعتبر أن الفرد هو حجر الزاوية فى التقدم... متى أهملناه انفرطت حلقات سلسلة مسيرتنا مهما كان شأنها...

لكن، عندما لا يشبه الإنسان الإنسان فى شىء!... عندما يخضع الإنسان للتراتبية... عندما يسحق الإنسان الإنسان... عندما يسلب الإنسان حق الإنسان... عندما... عندما... عندما... هل تبقى للإنسان إنسانية؟!

(*) مستوحاة من لوحة بعنوان "أطفال فلسطين فى القرن العشرين" للفنان الكويتى عبد الله القصار.

كَبُرَ فى بحبوحة مشحونة بالمنغصات، كلما تقدم فى استكمال دراسته، لا يعول على العودة... كان يريد أن يتعلم كل شىء يؤدى به إلى اختراع شىء ما وإلا فلا حاجة له بالمجردات والسفسطة...

اقترح على أستاذ التكنولوجيا تصميما عجيبا لعجلة فولاذية ذات تجاويف متعددة، تدور بطريقة ميكانيكية، تستطيع أن تقذف أشياء ذات أحجام بيضوية بسرعة فائقة... أخذ أستاذه التصميم، درسه جيدا، وتأكد من موهبته فى مجال الديزاين... عرض التصميم فى الليل على الخلية السرية للمقاومة فى المنطقة التى يقطن بها، أعجب الجميع ببساطة الفكرة وهزال ثمن تكلفتها...

تعهد الأستاذ بتنفيذ المشروع وتجريبه... كانت النتيجة باهرة... جربه الأستاذ رفقة أعضاء الخلية... استدعوا صاحب الفكرة... اقترح عليهم أفكارا أخرى تتعلق بتطوير مقذوفاته وسعته وسرعة دورانه...

قام الأستاذ بالتنفيذ وحققت الخلية انتصارات باهرة... فالجهاز بسيط... لا تلتقطه الأقمار التجسسية، يستطيع أن يمطر الأرض بالمقذوفات، ويعفى من تعب القذف اليدوى البسيط...

ما كل الوسائل البسيطة تقليدية... وما كل الوسائل التقليدية غير ذكية... وما كل الحروب الإلكترونية مجدية أمام قوة القضية...

حجر... بشر... إلى أن تنتهى القضية أو تتحجر الأذرع الواقية، فلا تستطيع الحرب الذكية هزم الفكرة العادية: القضية...

الفهرس

لائحة اللوحات التشكيلية

١ – لوحة بدون عنوان للفنان المغربى الحسين آيت أمغار.

٢ – لوحة بعنوان "اقتراب" للفنان الليبى على العبانى.

٣ – لوحة بدون عنوان للفنان الإيطالى **Andrea Ipasso**.

٤ – لوحة بدون عنوان للفنان المغربى عبد العزيز العباسى.

٥ – لوحة بعنون «مخزون الذكريات ٢» للفنان المصرى آدم حنين.

٦ – لوحة بعنوان **"Le-trappeur"** للفنان الأمريكى **Rock Well Kent**.

٧ – لوحة بدون عنوان للفنان المغربى م. يوسف الكهفعى.

٨ – لوحة بعنوان «أشخاص» للفنان السورى يوسف عبدلكى.

٩ – لوحة بعنوان **Le charmeur des serpents** (١٩٠٨–١٩٠٩) للفنان النمساوى **Alfred Kubin**.

١٠ – لوحة بدون عنوان للفنان المغربى إدريس حلمى.

١١ – لوحة بعنوان «إرادة الحياة أقوى» للفنان الفلسطينى إسماعيل شموط.

١٢-لوحة بعنوان Lautomne للفنان الفرنسى (من أصل كرواتى) Mikail Larinov.

١٣ – لوحة بدون عنوان للفنان المغربى ابراهيم اشيبان.

١٤ – لوحة بعنوان "الطائر" للفنان اللبنانى رفيق شرف.

١٥ – لوحة بعنوان Deus femmes للفنان الفرنسى Corbusier من أصل سويسرى.

١٦ – لوحة بدون عنوان للفنانة المغربية فتيحة بنموسى.

١٧ – لوحة بعنوان «معرض مطر» للفنان الاردنى عصام طنطاوى.

١٨ – لوحة بعنوان Lily au Leopard للفنان الأمريكى Richard Linder.

١٩ – لوحة بدون عنوان للفتان المغربى رشيد ارجدال.

٢٠ – لوحة بعنوان «الفلاحين» للفنانة المصرية تحية حليم.

٢١ – لوحة بدون عنوان للفنان المغربى محمد نجاحى.

٢٢ – لوحة بعنوان «الحسن» للفنان العراقى حسن المسعود.

٢٣ – لوحة بعنوان Le cheval (1952) للفنان الايطالى Marino Marini.

٢٤ – لوحة بدون عنوان للفنانة المغربية فاطمة أكنينير.

٢٥ – لوحة بعنوان «مجموعة نبطيات» للفنان السعودى فيصل السمرة.

٢٦ – لوحة بعنوان «أطفال فلسطين فى القرن العشرين» للفنان الكويتى عبد الله القصار.

المؤلف في سطور

محمد أشويكة

- من مواليد ١٩٧١ بقلعة السراغنة – المغرب.
- أستاذ مادة الفلسفة بمدينة مراكش.

صدر له :

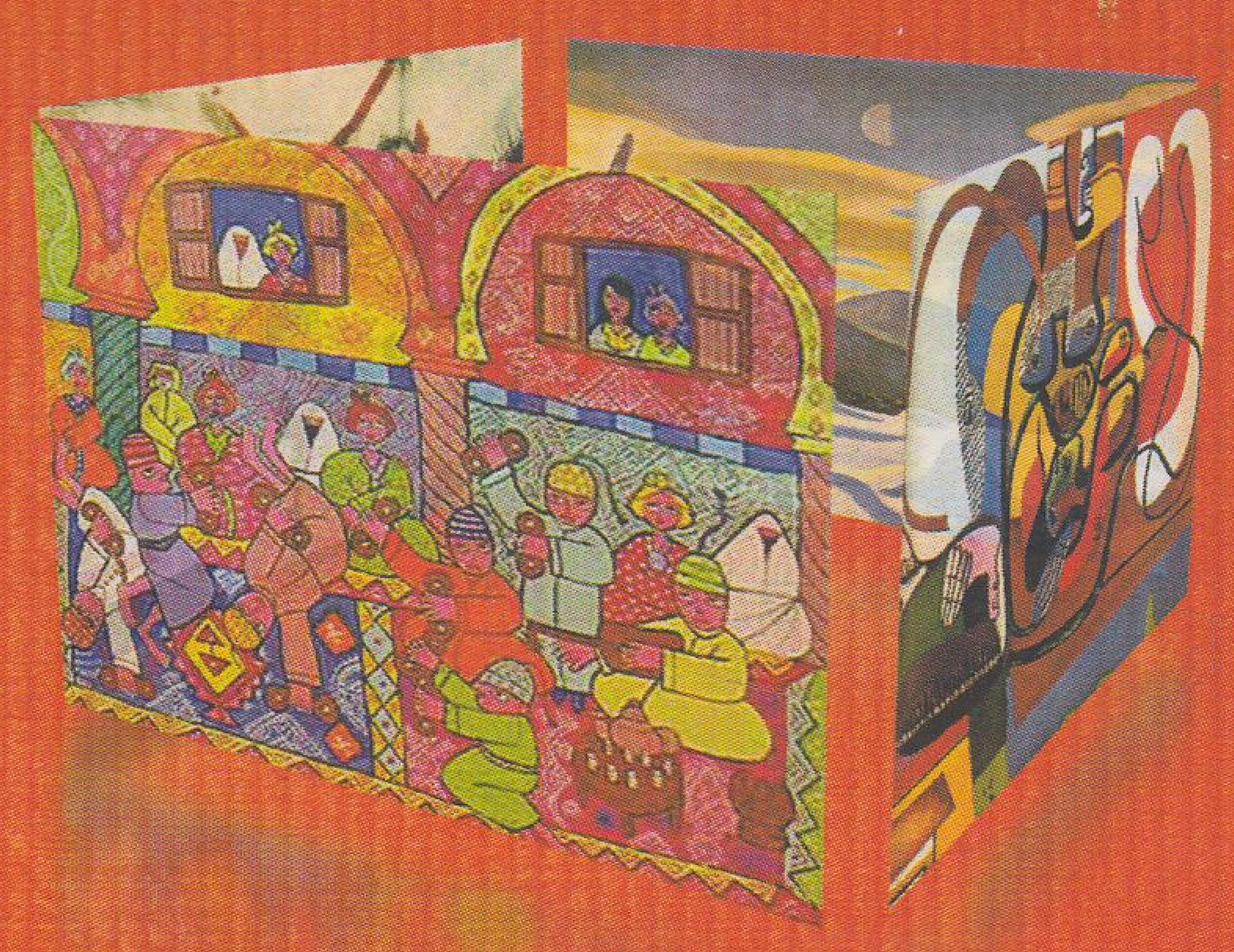
- الحب الحافى : قصص قصيرة ، منشورات الآفاق ، مراكش ٢٠٠١ .
- النصل والغمد : ورشة قصصية ، منشورات الكوليزيوم القصصى ، مراكش ٢٠٠٣ .
- الصورة السينمائية : التقنية والقراءة : بحث ، منشورات سعد الورزازى ، الرباط ٢٠٠٥ .
- احتمالات : سيرة كائن من زماننا ، قصة ترابطية ، منشورات الكوليزيوم القصصى ، أبريل ٢٠٠٦ .
- خرافات تكاد تكون معاصرة : قصص قصيرة ، منشورات زاوية، الرباط ٢٠٠٧ .

- القرداتية : مجموعة قصصية ، منشورات وزارة الثقافة ، الرباط ٢٠٠٧ .
- المفارقة القصصية : بحث ، منشورات سعد الورزازى ، الرباط ٢٠٠٧ .

لــه بالاشتراك :

- نسق وشارك فى «منارات» ، مختارات من القصة المغربية الجديدة ، منشورات الزمن ، الرباط ٢٠٠١ .
- شارك فى «أنطولوجيا القصة المغربية» منشورات وزارة الثقافة ، الرباط ٢٠٠٥ .
- شارك فى «الحاءات الثلاث» مختارات من القصة المغربية الجديدة (أنطولوجيا الحب) إعداد محمد سعيد الريحانى ٢٠٠٧ .
- عضو اتحاد كتاب المغرب ومسؤول سابق بفرع مراكش.
- أحد مؤسسى الكوليزيوم القصصى (حلقة دراسية مهتمة بالقصة التجريبية).
- أحد مؤسسى نادى القصة القصيرة بالمغرب.

المراجعة اللغوية : عمرو مغيث
الإشـراف الفنـى : محمود مراد



"رسمت بابًا ونوافذ، اعتبرت أن المخارج متعددة والاختناقات غير واردة... رغم أن لكل زمن رئة على مقاسه... قد يظن الإنسان أن السعادة، كل السعادة، في شيء ما يريد تحقيقه، ولكن سرعان ما يكتشف أن هذا الاعتقاد خاطئ وأن الحلم قد تبخر، وأصبح الحالم حبيس الشيء ذاته...، الباب الذي دخلته أول مرة خرجت منه يائسة، النافذة التي كانت ترى منها العالم انقفلت أمام عينيها لتتفتح على سديم مظلم... تقول: النور في مكان ما من الجسم، فقط يجب أ
نكتشفه..."

هذه المحكيات مستوحاة من لوحات فنية تشك
لفنانين مغاربة وعرب وعالميين، وهي محكاة بم
مراكش بين سنتي ٢٠٠٤، و٢٠٠٥.



